مقدمة خديجة (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

(ذكر الله تعالى والثناء عليه
والشكر له قبل كل شيء)

دخل هذه الدار عدد لا يحصى من بني آدم بجموعهم عمرت القرى والامصار، وتحركت أفلاك العلوم والاعمال، وتناقبت أسلاك الاجتماع والاحوال، واذا فحصت كتب السير والتاريخ لا تجد ذكر العشر من دخلها ولا لعشر عشرهم ولا للواحد في الالف، ولا للواحد في ألف الالف منهم فلماذا يعني المؤرخون بهذا القليل من بني آدم ويهملون الكثير منهم؟

ليس بعجيب ما صنع المؤرخون فان الاكثرين من بني آدم متشاكلو السيرة، متشابهو الحالة والغاية، على ما بين سيرهم من التغاير، وبين أحوالهم من التفاوت، وذلك أن حاصل أمرهم تعب وكد ومزاحمة وحيرات وحسرات في تحصيل ما اشتهوا أو تعودوه من المطالب جل أو حقر، فاذا

(*) بقلم السيد عبد الحميد الزهراوي مؤلف سيرة السيدة خديجة

هي أن يذكر المؤرخ من حكايات هؤلاء التي يمكن أن تكتب كلها هكذا : « جاءوا الى هذه الدنيا فاشتغلوا بأسباب معايشهم وعاشوا خاضعين للغالب وذهبوا غير تاركين أثرا في هذه الدار الا ان كان ولداً على شاكلتهم »

وأما أولئك الافراد القليلون الذين لهم بعد عملهم وجود ظاهر بالآثار فان في سيرهم للتاريخ ذخراً من غرائب الاستعداد الانساني وبدائع مظاهره وجلائل مآثره وامثلة التفاوت بين أفراده والارتقاء والتكامل في مجموعه ، بواسطة آحاد من جملته ، بذلك يستمد التاريخ جدته كل يوم ، ويأخذ المزيد لروعته عند كل فرد وكل قوم

واولئك الافراد صنوف : فرسول مبشر ، وحكيم مبصر ، وكاتب مفكر ، وشاعر مذكر ، وفاتح مغير ، ومخترع مغير ، وكاشف منور ، وباحث مصور ، واجتماعي محرر ، وشرعي مقرر ، ونصاح مبرر ، ولساني مفسر ، ومفضال ميسر

هؤلاء الصنوف أطلب التاريخ على أحجامهم يدور ، وما آثرهم مشاركة منها يستمد النور ، ورواعهم في الذكر يأتي من اشتهروا بخلق من الاخلاق ، ومن عرفوا في خصيرة بطيب الاعراق ، ومن هنا يظهر لنا أن الشهرة ليست بشيء عند التاريخ اذا لم تؤيد بأثر . ولولا هذا لتعب المؤرخون في سرد أسماء كثيرة لا يستطيعون أن يبيضوا وجوه دفاترهم بشيء من أعمال أصحابها من كانوا كبراً في العيون لانهم أبناء أماجد مثلا وهم لم تجد لهم همة ، ولم تؤثر فيهم منقبة ، ويظهر لنا أيضا أن اغراض التاريخ من

ذكر من لم تبهر مآثرهم هو احسن درس في الاخلاق ألقاها علينا المؤرخون عن عمد أو بالتصادف وذلك لان النفوس تغايرها بالباقيات الصالحات تذكار اهلها وتعداهم ، وانما ينزهها عن الخمول سرعة انطفاء الظالمين ، وطول اشراق الباقي ذكرهم في العالمين

نعم ان من لهم الباقيات الصالحات التي يبقون ويذكرون بها هم افضل الهداة بالنفوس والنهض بها الى المكرمات فحكاية أحوالهم هي أفضل مآخذ الاخلاقيين الذين يجتهدون في أن ينهجوا اقارنهم كيف يتكمل الانسان وكيف يصير من الاقطاب اقطاب التاريخ

* * *

اللهم إني أستسقي جودك وإحسانك لأرواح المؤرخين الذين تركوا كنوزاً كثيرة لنفوسنا من سير الأقطاب من آبائنا ، وأستغفرك عن زلة زللها أكثرهم من حيث لا يشعرون وهي إهمالهم كثيرا من سير الأقطاب من أمهاتنا ،

لقد علمنا أن الفرق ليس بكبير في الفطرة بين الرجل والمرأة ، وليست المرأة بمحرومة من المزايا التي بلغ قدر المتحلي بمثلها من الرجال ، ذلك أننا نرى لهن عقولا سليمة ، وقلوبا كريمة ، وهمما عظيمة ، وهل للرجال ينابيع للمكارم غير هذه العقول والقلوب والهمم ؟ ونرى الاديان اعتبرت المرأة كالرجل في التكليف بالعقيدة والعبادة والآداب . ونرى الاجتماع اعتبر المرأة كالرجل في التكليف بالعمل وما زال نصيبها منه

كبيرا وتابعا لتقسيم الاعمال على حسب مرتبة محيطها من العالم ثم على حسب مرتبتها من محيطها . وهذا غير ما نعلمه من فضل بعض الفاضلات الماضيات اللاتي تصلح سيرهن أن تكون هدًى للرجال قبل النساء ، ولولا تلك الزلة التي ذكرناها للمؤرخين لكان اللاتي نعلمهن أكثر وما اللاتي نعلمهن الآن من الفاضلات بقلائل

من هؤلاء سيدة قد سمع بفضلها العالم كله ولكن العارفين بتفاصيل فضائلها ومزاياها قليلون . الشرق سمع بهذه السيدة والغرب ، الترك يعظمون اسمها والعرب ، وفارس والهند ، والافغان والسند ، وفي أرض الصين تعظم ، وفي الدنيا الجديدة تكرم ، واذا فتحت دفاتر المؤرخين عفا الله عنهم لا تجد فيها تحت اسم هذه السيدة الجليلة الا كلمات يسيرة في ترجمة حالها ، وشرح خلالها ، ولكنا نحن شاكروهم على هذه الكلمات التي يملأ سناها العقول والقلوب فتهتدي بها على قلتها الى عظيم أمرها كما يدرك المبحرون عظمة المنار اذا كانت أشعته عظيمة السطوع

ولقد كنت تفكرت في ان اكافئ والدتي بعض المكافأة فتبينت بعد طول التفكر ان عظيم فضلها عليّ هو أبعد من أن يوفى شيء من حقه ولكن تراءى لي أنه يسرّها أن أعلن للملإ فضل جنسها وأذكرهم بما نسوه من احترام حقوق هذا الجنس ولم أجد أحسن طريقة الى هذه الغاية الجليلة من شرح سيرة هذه السيدة التي هي احدى جدّاتها

فمن مدد تلك الكلمات القليلة التي تركها لنا المؤرخون في ترجمة حال هذه السيدة أؤلف هذه القصة الحقيقية والى روح والدتي أرفعها هدية على راحة خشوعي وضعفي ، ومن خزائن رحمة الله ورضوانه أستنزل تحية طيبة مباركة لهذه الروح البارّة

ومن راقه هذا المؤلف الصغير وحصلت له به لذة وفائدة فلي حق أن أرجوه شيئا ولا أرجوه الاّ ان يكون مساعدا في اقامة حقوق المرأة وكرامتها وآدابها . ان النساء أمهاتنا معشر الرجال وعلى حسب تربيتهن نكون فنطالب من محيطنا أن يهذب بالعلم الامهات ويسعى لترقية مداركهنّ وآدابهنّ !